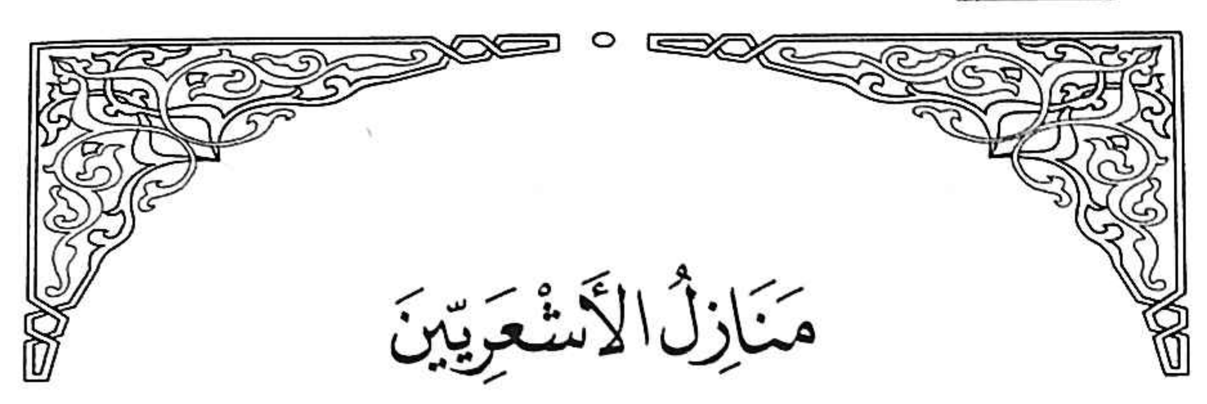


مَنَازِلُ الأَشْعَرِيّينَ

حادثةٌ حكاها لي مرةً أحد الأقارب قبل زهاء خمس عشرة سنة، كان يتحدث لي بشكل عرضي لم يلقِ هو بالاً وهو يتحدث، لكن قصته تلك ما زالت تتناوب على ذهني بين فينة وأخرى، قريبي هذا يسكن قرية محدودبةً في عالية نجد، ويروي لي أنه في الأيام العليلة من السنة يغلق أجهزة التكييف وينام قريباً من النافذة، ويعلم عن دخول الثلث الأخير من الليل عبر صوت أحد الكهول في القرية يدخل المسجد مع الهزيع الأخير من الليل، وفي فناء المسجد يفترش طرفاً من السجادة الطويلة ويبدأ يرتل القرآن في صلاته بطريقة كبار السن المعهودة، وهذه عادته كل ليلة.

منذ حكى لي قريبي تلك القصة وأنا أتحين ذلك الكهل لأرى صلاته الروحانية، يا ليتك تراه وهو يقبض لحيته بين حين وآخر، ثم يسترسل في قراءته، لقد كاد

يأخذ بأنحاء قلبي، قراءته تلك ليست بتجويد مصقول، ولا حتى بصوت أنيق، ولكنها ـ وعزة جلال الله ـ فيها صدق ويقين أحس أن حوله هالة نور وهو يقرأ ويرتل.

صحيح أن القرآن بعامة يحمل طاقة تأثيرية تخلب لب المستمع، ولكن هناك عنصر إضافي صرت ألمسه أخيراً، وهو أن القرآن إذا خيم سكون الليل يكون عالماً آخر، ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل، ذلك الكهل القرآني، توفي قبل سنيات قلائل ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ، ولكن ما الذي بعث قصته من مرقدها في ذهني؟

الحقيقة أن الذي أيقظ هذه القصة القديمة قصة مماثلة مرّت بي وأنا أتصفح صحيح البخاري، وأنا واثق أنك منذ أن تقرأ هذه القصة في البخاري فلن تخطئ عينك وجه العلاقة، فقد روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ»**[1]، لاحظ كيف لم

(١) صحيح البخاري: ٤٢٣٢، ٥/١٣٨، الطبعة السلطانية.

ير النبي ﷺ منازلهم بالنهار، ثم استطاع أن يحدد موقعها لما خيم الليل بسبب ما بدأ يتسرب منها من حنين المرتلين، إنها «**منازل الأشعريين**».

يا ألله.. بالله عليك ألا تلمس في كلمات رسول الله ﷺ حرارة الإعجاب لذلك الترتيل الذي يتهادى من منازلهم بالليل؟! واضح أن النبي ﷺ لم يكن يخبر عن مجرد سماعه مصادفة لتلاوتهم الليلية، بل تكاد تتحسس كيف كان النبي ﷺ متأثراً بروعة ذلك الصوت القرآني لدرجة تتبع مصدره وتعيين موقعه في الليل، ثم الإخبار بذلك نهاراً، هكذا يكشف مشاعره: «**وَأَعرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ**»، هل تصدق أنني شعرت بحب جارف لأولئك الأشعريين الذين كانت أصواتهم بالقرآن بالليل تستثير إعجاب رسول الله ﷺ، بل لقد دفعني ذلك الحب أن أبحث عن شيء من أخبارهم في كتب التراجم والسير، صحيح أنني وجدت لهم بعض الفضائل، لكنها لم تشفِ نفسي إلى الآن عن خبرهم، وخبر ليلهم الذي كانوا يسهرونه مع كتاب الله، فاللَّهُمَّ ارض عن الأشعريين.

النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهار قطعاً، فلماذا جذبته قراءة الأشعريين وصار يتلفت إلى منازلهم إذن؟

لا أدري.. لكنني أميل إلى أنها أسرار القرآن بالليل، فآيات القرآن إذا هبطت غيوم المساء صارت تتدفق بروحانية خاصة، انبعاث صوت القارئ بالقرآن بين أمواج الليل الساكن قصة تنحني لها النفوس.

وقد مرت بي شواهد أخرى لاحظت فيها هذا الحنين النبوي لصوت القرآن بالليل.. ففي «صحيح الإمام مسلم» أن النبي ﷺ قال مرة لأبي موسى: **«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ»**(١)، يبدو أن رسول الله ﷺ يشتد اهتمامه لمصدر الصوت حين يسمع قارئاً يقرأ القرآن وسط ظلام الليل، حتى أنه إذا أصبح أخبر أصحابه بتلك القراءات القرآنية الليلية، وقوله: **«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ»** يدل على أن النبي ﷺ أعار الأمر اهتمامه، وأخذ ينصت، تذكر معي هاهنا أن رسول الله ﷺ يحفظ القرآن بإحفاظ الله له، ومع ذلك ينصت لمصدر الصوت بالقرآن مهتماً، ثم يخبر أصحابه بعد ذلك، لماذا؟

---

(١) صحيح مسلم: ٧٩٣، ٢/ ١٩٣، الطبعة العامرة.

إنها أسرار روحانية القرآن حين تستحوذ على سكون الليل البهيم، ليس البشر فقط، بل حتى الملائكة خرجت عن استتارها يوماً حين انبعث صوت الصحابي بالقرآن، ففي «صحيح البخاري» عن أسيد بن حضير قال: «بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ. . . فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ رسول الله ﷺ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ**»»[1]، كلما سمعت قارئاً يتلوا شيئاً من سورة البقرة، ومرت بي بعض المواضع المثيرة للعقل البشري، وفي البقرة مواضع تهز النفوس هزاً أعظمها آية الكرسي التي كلها في أوصاف الجلال الإلٰهية، وقصة تقلب وجه الرسول ﷺ في السماء تهفو نفسه لتغيير القبلة، وقصة ابتلاء إبراهيم الخليل عليه السلام بالكلمات وإمامته في الدين، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا القتال ثم أخذوا يتساقطون على مراحل، ومواضع عجيبة أخرى، والمراد أنني كلما سمعت قارئاً

(١) صحيح البخاري: ٥٠١٨، ٦/ ١٩٠، الطبعة السلطانية.

يتلوا شيئاً من البقرة تذكرت تنزل الملائكة بأنوارهم حين أخذ أسيد بن الحضير يرتل البقرة وسط جنح الظلام.

لماذا تنزَّلت الملائكة كأنها المصابيح تتلألأ وخرجت عن استتارها؟ إنها عجائب كتاب الله حين يهيمن فوق سكون الليل، بل تأمل في خبر أعجب من ذلك كله، وهو أن النبي ﷺ كان يحث أصحابه بشتى الطرق ـ المباشرة وغير المباشرة ـ على تلاوة القرآن بالليل، كان رسول الله ﷺ يبعث رسائل ضمنية أثناء تحدثه مع أصحابه تغرس فيهم مركزية تلاوة القرآن إذا لفّ المساءُ المدينة، ومن تلك القصص أنه ذُكِر مرة في مجلس النبي ﷺ الصحابي الجليل «**شريح الحضرمي**» فأثنى النبي ﷺ عليه بطريقة ليس من الصعب بتاتاً فهم الرسالة الضمنية فيها.. فقد روى النسائي وغيره بسند صحيح «أَنَّ شُرَيْحاً الْحَضْرَمِيَّ ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ**»»(١)، دعني أعترف لك أولاً أنني حين قرأت هذا الحديث أول مرة لم يستبن لي

(١) سنن النسائي: ١٧٩٩، ٣/٤٩٨، طبعة التأصيل، وأحمد: ١٥٧٢٤، ٢٤/ ٥٠٠ طبعة الرسالة.

وجهه؟ ما معنى: «**لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ**»؟ وهل هناك أحد أصلاً يجعل القرآن وسادة لا سمح الله؟

وإذا بالمعنى أنه لا ينام بالليل ويترك حزبه من القرآن، لكن البلاغة النبوية العظيمة صورت من ينام عن القرآن كأنه اتخذ القرآن وسادة!

والنص له وجهان، إما أن يكون الرسول ﷺ يمدح من لا يتوسد القرآن، أو يذم من يتوسد القرآن، ورجح ابن الجوزي في غريبه والسندي في حاشيته الوجه الأول، وعلى كلا التقديرين فالحاصل هو تنبيه الرسول بطريقة بلاغية مثيرة على مكانة تلاوة القرآن بالليل، إذا كان النوم عن القرآن شبهه الرسول ﷺ باتخاذه «**وسادة**»، فيبدو أن وسائدنا تهتكت من كثرة النوم عليها! فاللَّهُمَّ ارحم الحال ولا تجعلنا ممن يتوسد محفوظاتنا من القرآن.

وفي كتاب الله إشارات إلى ذلك الجمال الأخاذ لقراءة الوحي بالليل، منها: أن الله تعالى أثنى مرة على قوم بذلك، فقال تعالى في وصفهم: ﴿**أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ**﴾ [آل عمران: ١١٣]، هل تستطيع أن تمنع الشجو حين تتخيل هؤلاء القوم الذين أحب الله فيهم التغني بآيات الوحي إذا أوى الناس إلى فرشهم؟ الله ﷻ

يثمن منهم هذا الموقف ويخلده في كتابه العظيم، أخذت مرة أتأمل مثل هذه الأخبار القرآنية النبوية عن جلال القرآن في الليل، وأخذت أتساءل: ما سبب ذلك يا ترى؟ هل هناك تفسير علمي لذلك؟ لم أصل لنتيجة حاسمة، لكن بدت لي بعض الإشارات في كتاب الله.

فقد أشار القرآن في غير موضع إلى كون الليل موضعاً للسكن كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [النمل: ٨٦]، ففي أصل التكوين البشري يحتاج الإنسان إلى السكينة بالليل، وتكون النفس مهيأة بما يعتريها من هذا الهدوء، والوحي الإلٰهي من أعظم أسباب السكينة، ومن هذا الباب كانت أحد الوجوه في تفسير ما في التابوت في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، ولذلك فإن المعرض عن القرآن يصاب بالآلام النفسية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، فالحياة الطيبة الحقيقية لا تكون إلا لأهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

والمراد أن من تأمل اهتمام النبي ﷺ تجاه مصدر الصوت بالقرآن في الليل حين قال: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنَازِلَ الأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ**»، وحين قال لأبي موسى: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ**»، ومدح النبي ﷺ لشريح الحضرمي بأنه «**لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ**»، وتنزل الملائكة كأنها المصابيح حين أخذ أسيد بن حضير يرتل سورة البقرة بالليل، ومدح الله لأولئك القوم بأنهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١١٣].. إلخ، من تأمل ذلك كله، فهل سيبقى ليله يتصرم في سهرات ترفيهية مع الأصدقاء، أو تصفح الترهات الفكرية ومقاطع اليوتيوب على شبكة الإنترنت؟! هل سيرحل أكثر اليوم وليس فيه إلا انهماك في تتبع تعليقات غير نافعة على شبكات التواصل الاجتماعي؟ هاهو العمر يمضي والناس من حولنا لا يمضي أسبوع إلا ويقال: أحسن الله عزاءك في فلان، فهل يا ترى سيفنى العمر هكذا في الفضول والترفيه ونحن لم نتذوق حلاوة كتاب الله آناء الليل؟

❋ ❋ ❋